تفسير

سورة المُلك

الجزء الرابع

الشيخ / هاني حلمي



أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.



الحمد لله وكفي وصلى الله وسلم وبارك على النبي المصطفي وآلهِ المستكملين الشرفا.

ثم أما بعد،

فأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وذهاب غمومنا.

اللهم ذكّرنا منه ما نُسّينا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت.

هذا هو الدرس الرابع في مُدارسة سورة الملك، وسنبدأ إن شاء الله تبارك وتعالى في مُدارسة آخر المقاطع في هذه السورة من قول الله تبارك وتعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)} [الملك: 25-30].

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25)}، أي متى يكون الحشر والجزاء الذي تعِدوننا به، إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر، وهذا قيل على سبيل الاستهزاء منهم، وقد قيل أن المراد أنهم يستعجلون العذاب أي كأنهم يقولون متى هذا العذاب الذي تُهددنا به، فالكفار دائمًا يستعجلون العذاب وهذا على سبيل التكذيب منهم كما قال الله تبارك وتعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [العنكبوت: 53]، وقال سبحانه وتعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} [الحج: 47]، وقال سبحانه: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} [الرعد: 6]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال:

32]، وقال تعالى عنهم: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: 16]"، فإذًا فهذا الكلام منهم إما سيق على سبيل الاستهزاء أو على سبيل الاستبعاد والتكذيب.

فكانوا يستعجلون حصول العذاب فيقولون متى هذا الوعد؟ أرنا ما جئت به، متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فقال الله لهم: {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ}، أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عزَّ وجلَّ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة، كما قال سبحانه وتعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} [الأعراف: 187].

مهمة الأنبياء والرسل....

قال: {وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، لاحظوا هذا الأسلوب على سبيل الحصر، هذه هى المهمة التي ينبغي أن يقوم بها الأنبياء والرسل ومن تبعهم بإحسان، إنما نحن منذرون بين يدي عذاب أليم، فهذه مهمة الرسل وهذه هى مهمة أتباع الرسل الإنذار من حصول هذا العذاب.

{وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، أي وإنما عليَّ البلاغ وقد أديته لكم،

والإنذار: هو الإخبار مع التخويف.

قال بن عطية: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأن علم القيامة والوعد الصدق هو مما تفرد الله تعالى به، وأن محمدًا ﷺ إنما هو نذير يعلمُ ما عَلِم ويُخبر بما أُمِرَ أن يُخبَر به؛

فإذًا الحكمة من إرسال الرسل هى النذارة، لذلك قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ في مفتتح الدعوة: {قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: 2].

بيّن القرآن أن إرسال الرسل كان لعدة حِكَم، وهذه هى أيضًا المعاني التي ينبغي أن لا يدعها الداعي إلى الله تبارك وتعالى، وإذا قلنا أننا بطبيعة الحال كلنا دعاة إلى الله تبارك وتعالى تنفيذًا لأمره تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} [العصر: 3]، فينبغي أن نتأمل هذه الحِكَم جيدًا لنقوم بها في واقعنا....

1) التبشير للمؤمن والإنذار للكافر.

أي أن نجمع ما بين الخوف والرجاء، الترغيب والترهيب، قال الله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [الكهف: 56]، وقال سبحانه: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: 165]، وقال سبحانه: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الفتح: 8]، وقال جلَّ جلاله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: 48]، إذًا المهمة الأولى التبشير للمؤمن والإنذار للكافر.

ولا ينبغي في واقعنا الآن أن يُقال رغّبوا من تشاءون من المؤمنين لكن لا تُنذروا الكافرين لأن هذا قد يُغضبهم، فلا ريب ولا شك أن هذا يُخالف منهج القرآن

منهج القرآن في الإنذار والتبشير.

منهج القرآن ينُص نصًا كما بيّنا على أن رسالة الأنبياء ومِنهاج النبوة، أن يجمعوا بين النذارة والبشارة، يُنذرون أهل الكفر والعصيان ويبشّرون أهل الإسلام والإيمان، وهذا هو المنهاج الذي ينبغي أن يقتفيه دعاة الإسلام.

2) أن يكون حال الرسل وأتباعهم رحمة للناس.

فيكونون من أرحم الناس بالناس قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، وما وإلا تفيد الحصر أيضًا، فإذًا المعنى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الدعوات هى الرحمة بالناس.

الرحمة تقتضي الحزم لا الإهمال.

وحينما يكون القلب ممتلىء بالرحمة تجاه الناس يرحم الإنسان منا الجميع فحينها **تقتضي هذه الرحمة الحزم لا الإهمال**، بمعنى أن الأب إذا كان يرحم ولده فهو يحبه ويُشفق عليه فربما يشتد عليه ليربيه ويهذبه لينجح في حياته حينما يراه قد تقاعس عن أداء بعض الأمور أو يراه ليس قائمًا بالحق على الوجه المطلوب، فحين إذٍا إذا اشتد عليه لا يُقال هذا عنف وهذا بطش وهذا فيه تعدٍ على حقه كإنسان وإنما يُقال هذا من رحمة الوالد بولده، وهكذا شأن الدعاة إلى الله تبارك وتعالى أتباع الرسل، ينبغي أن لا يُهملوا الناس، وإنما من مقتضيات رحمتهم بالناس أن يأخذوا على أيديهم حتى يروا الطريق إلى الله تبارك وتعالى فهذه الحكمة الثانية.

3) البلاغ المبين.

قال الله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 20]، وقال جلَّ جلاله: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [المائدة: 99]، وقال سبحانه: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: 82]، إذًا ينبغي علينا أن نبلغ ما بلغنا عن رسول الله ﷺ وما جاء به الكتاب المبين، فقد قال النبي ﷺ "بلغوا عني ولو آية" [صحيح البخاري:3461]، بلغوا عني على سبيل التكليف ولو آية على سبيل التخفيف وعني على سبيل التشريف، إذًا بلغوا وأنتم في هذا الشرف العظيم أن يكون البلاغ عن النبي ﷺ ولو آية واحدة.

واجب الدعوة من أعظم الواجبات.

ينبغي على الجميع أن يعلموا أن واجب الدعوة من أعظم الواجبات، وأن هذه الأمة جاءت لتكون مترابطة متماسكة وجُعلت خيريتها بسبب الدعوة إلى الله تعالى قال سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: 110].

❋ **إذًا لا ينبغي أن تسود عبارات مثل:** اجعلني في حالي، دعني وشأني، أريد أن تمر الأيام التي لي في الدنيا دون منغّصات ومُكّدِرات، دعونا في أحوالنا وشئوننا يا ناس، كلٌ من سيحاسب على عمله وحده والله تعالى يقول: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40)} [النجم: 39-40]، ويقول " {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [النجم: 38] ونحو من هذا مما يختلط على الناس،،،،

لا يا عبد الله إنّك مأمور بأداء الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والله جلَّ وعلا جعل هذا هو السبيل لكل مسلم ومسلمة قال سبحانه: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108]، إذًا البلاغ كلما أتانا خير ينبغي أن نبلغه ولو أن نبلغ آية، ولو أننا الآن نتدارس هذه الآيات فينبغي علينا أن نُوصلها للناس ونُفهمها للناس بما نستطيع،،، بلغوا عني ولو آية.

4) الدعوة إلى التوحيد.

الأمر الرابع من حكمة إرسال الرسل هو بلا ريب ولا شك هو الدعوة إلى التوحيد فقد قال الله تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36]، أن اعبدوا الله أي أن نحقق معنى العبودية التي خُلقنا من أجلها؛

معنى العبودية.

ومعنى العبودية معنى عام وشامل لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛

ومعنى العبودية يشتمله معانٍ ثلاث: الحب التام والذل التام والتعظيم والإجلال لله سبحانه وتعالى المنان.

معنى الطاغوت.

أن اعبدوا الله فقوموا لله بهذا الحق، ولا تتحقق هذه العبودية لله حتى يجتنب العبد كل متبوع وكل معبود من دون الله تبارك وتعالى هذا معنى الطاغوت الذي هو من الطغيان، طاغوت من الطغيان فكل ما طغى عليك وأثر فيك سلبًا فهو من الطاغوت، وكل ما عُبد من دون الله تبارك وتعالى فهو من

الطاغوت، وكل من اتُبع من دون الله فهو من الطاغوت، وكل من حَكَم بغير شرع الله فهو من الطاغوت، وكل من تَجَبر وعاث في الأرض الفساد فصار طاغية في هذا الزمان فهو أيضًا مما أُمر العبد باجتنابه والابتعاد عن طريقه.

ولا ينبغي بحال أن يركن العبد إلى أهل الظلم ولا تأخُذنا بهم رحمة في دين الله، والله تبارك وتعالى قال: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: 113]، {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36]، وقال تبارك وتعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25].

إذًا الدعوة إلى التوحيد هى الدعوة إلى العبودية لله تبارك وتعالى.

المُراد بلفظ التوحيد.

وإذا قلنا لفظ التوحيد فإن المراد به توحيد العبادة.

توحيد العبادة يتضمن توحيد الربوبية والألوهىة.

وهذا النوع من التوحيد يدخل فيه بدلالة التضمن توحيد الربوبية والألوهىة، لأن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهىة توحيد خبري، بمعنى إخبار عن صفة الرب تبارك وتعالى بأنه الخالق الرازق المدبر للأمر سبحانه وتعالى، الذي بيده إحياؤنا وإماتتُنا وهو منه مبدَؤنا وإليه مصيرنا ومرجعنا، وهو سبحانه وتعالى المتسم والمتصف بهذه الأسماء والصفات العُلا، ومن مقتضيات ذلك أن يكون هو الإله المعبود سبحانه وتعالى فإذًا الدعوة إلى هذا المعنى، الدعوة إلى التوحيد بهذا المعنى.

التوحيد أولاً.

هذه من حكم إرسال الرسل وهذه مهمة أتباع الرسل في كل زمان، التوحيد أولاً، التوحيد دائمًا على رأس اهتمامات الداعي إلى الله تبارك وتعالى؛

إذًا ليس كما يصنع البعض من أن يُقدم بعض الأمور على التوحيد، بمعنى أن نهتم بجانب دون جانب من أمور الإسلام، نهتم مثلاً بالجانب الأخلاقي هذا أمر في غاية الأهمية للمسلم، لكن ليس على رأس الاهتمام كما هو شأن التوحيد، التوحيد دائمًا يأتي على الرأس، يأتي في المقدمة، أو أن يهتم الإنسان بالجانب التعبدي على حساب جانب التوحيد ومعانيه، على حساب جانب الاعتقاد، وأيضًا من مقتضيات ذلك تعليم الإنسان كيفية الإيمان بالله تبارك وتعالى، إذًا الحكمة الرابعة الدعوة إلى الله والدعوة إلى التوحيد.

5) إقامة الحُجة.

كثيرًا من الناس يأتي عليه هذا الإشكال... وما نصنع الناس لا يقومون بأداء الواجب... والناس قد يهزؤون بهذه الدعوات... والناس لا يستجيبون... فما لنا نُتعب أنفسنا... دعونا نترك هذه المهمة التي لم يعد لها نصيب ولا حظ من الاستجابة... ودعونا في شأننا...، فنقول بل نُقيم الحُجة، وقد قال الله تبارك وتعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّـهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: 165]، وقال سبحانه وتعالى {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} [طه: 134].

إذًا هذا عمل عظيم بلا ريب ولا شك لأن الواحد منّا إذا قام بهذا الدور الذي يكلفه الله به ليقيم الحُجة على الناس، قال الله تبارك وتعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15].

فإذا كنت أنت...، أنت يا عبد الله...، وأنتِ يا أمة الله...، من تقوم بهذا الحق الواجب، فطوبى لكَ... ثم طوبى لكِ.

إن أهل الكفر عندما يصيحون بالنار بعد أن يُحيط بهم العذاب من كل جانب ويُنادون ويصرخون، فتقول لهم خزنة جهنم كما في قوله تبارك وتعالى: {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: 50].

إذًا عباد الله إن الحكمة من إرسال الرسل هى:

أولاً التبشير للمؤمن والإنذار للكافر.

ثانيًا رحمة للناس.

ثالثًا يقوموا بالبلاغ المبين.

رابعًا يدعوا الناس إلى التوحيد توحيد رب العالمين.

خامسًا إقامة الحُجة على الناس.

وهذا مما ينبغي تأمله في قوله تبارك وتعالى: {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّـهِ} [الملك: 26]، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: 76]، والعلم عند الله تبارك وتعالى والله استأثر بعلمه أشياء وتعبدنا بالإيمان بذلك.

{وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ}، اختلف أهل العلم في مرجع الضمير في قوله تبارك وتعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ} رأوا من؟ قال الإمام القرطبي أكثر المفسرين على أن المعنى فلما رأوه يعني العذاب، وهو عذاب الآخرة، لمّا رأوا هذا العذاب حين إذٍ ساءت هذه الوجوه وتكدّرت وهذا ما اختاره الطبريُّ وأبو حيّان والشوكاني وغيرهم،

والبعض ذهب إلى تأويل ضعيف فقالوا أن قول الله تبارك وتعالى {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً} أي لما رأوا العذاب يوم بدر، إذًا المعنى الذي عليه أغلب المفسرين أن الهاء هنا تعود إلى عذاب الآخرة فلمّا رأوه، رأوا عذاب الآخرة زُلْفَةً، أي رأوا ذلك قريبًا منهم فعاينوا أهوال القيامة، فلما رأوه زُلْفَةً لمّا قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريبًا، لأن كل ما هو أتٍ آت وإن طال زمنه، {سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}: أي ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، وظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن، وخابت ظنونهم وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}، {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الزمر: 47-48]، "نسأل الله العفو والعافية".

{سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}: قالوا خصّ الوجوه بالذكر، لأن الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرّة أو أثر المُساءة، فإذًا دائمًا أبدًا تظهر علامات الحزن أو الفرح على الوجوه لذلك اختصت بذلك الذكر، سِيئَتْ وجوه الذين كفروا، وَقِيلَ أي لهم على سبيل التقريع والتوبيخ والتبكيت هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ، أي يُقال لهم على هذا الوجه إنّ هذا: هو البعث والحشر والحساب والعذاب الذي كنتم تطلبونه في الدنيا، ألم تكونوا تستعجلون، ألم تكونوا تقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين فها هو ما تطلبون، هذا الذي كنتم تتمنون وتسألون.

❋قال بعض أهل العلم كأبي السعود وغيره: {هذا الذي كنتم به تدعون}: أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكارًا واستهزاءًا، على أنه تفتعلون "تدعون تفتعلون من الدعاء" أو أنه من الدعوة أي تدعون أنه لا بعث ولا حشر.

وقد قُرِيء هذا الذي كنتم به تدْعُون،

✍وجاء أن المعنى كما قلت أنكم تفتعلون هذا من الدعاء وهذا قول أكثر العلماء، وهذا معناه هذا الذي كنتم تتمنون وتسألون وتطلبون، أو أنه من الدعوة هذا الذي كنتم تُبطلونه، أي تدعون أنه باطل... لا يأتيكم، فها هو قد أتاكم، فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

🔔 يا عباد الله اذهبوا إلى الله على أقدامكم، وإيّاكم أن تأتوا الله زحفًا على وجوهِكم.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}.

☜ الناس عادةً للأسف الشديد إذا تكبّروا وتجبّروا وعاندوا لا يستجيبون إلا بعد فوات الأوان، وهذا شأن النفوس المتكبرة... دائمًا أبدًا لا تنقاد إلى أمر الله تعالى.

ஐ المشكلة أن آفة الكبر آفة إذا دخلت القلوب "نسأل الله العافية"، تجد الواحد دائمًا أبدًا لا يرى إلا نفسه، لا يُحسن الاعتذار ولربما قال: هذا طبْعِي... هذا لا أستطيع أن أنفك عنه...، وهذا يُنافي

الإيمان، لماذا لا تستجيب ولماذا لا ترعوي "أي لماذا لا تنفكّ عن الجهل، وترجع إلى الحق رجوعًا حسنًا"، لماذا تنتظر العذاب حتى تؤمن؟؟، هؤلاء لما تكبّروا وظهرت علامات الكبر عليهم لم يسوؤهم الأمر إلا لما نزل بهم العذاب، ولات حين مندم: " أي فاستغاثوا حين جاءهم العذاب ونادوا بالتوبة, وليس الوقت وقت قبول توبة, ولا وقت فرار وخلاص مما أصابهم"، ...بعد فوات الأوان فكأنّ هذه الآية تقول لكل متكبر، لكل من لا ينقاد إلى أمر الله تبارك وتعالى، تقول له بجهة الإنذار، الحق قبل فوات الأوان.....

{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ}.ثم قال الله تبارك وتعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}: أي قل يا رسول الله ﷺ لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعم الله: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا، إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بتأخير آجالنا لنستدرك أمرنا، فمن يجير الكافرين، فمن يحميكم أيها الكافرون من عذاب الله الأليم، فقد كان الكفّار يتمنون هلاك النبي ﷺ، وهكذا أصحاب القلوب الحاقدة، وهذا دليل على آفة ثانية كانت فيهم، وهى الغل والحسد والحقد، لدعوة النبي ﷺ، وللنبي ﷺ وللمسلمين، فأمره الله أن يقول لهم إن أهلكني الله بالإماتة، وأهلك من معي، فأي راحة وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي سيحميكم من هذا العذاب...؛

✍ والله تبارك وتعالى جعل من أسباب رفع العذاب أن يكون النبي ﷺ فينا، قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: 33]، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، فإذًا من أسباب رفع العذاب عن الناس وجود النبي ﷺ فينا.

☜ فلذلك قال: {فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}: من الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم، هل تظنون أن أصنامكم ستخلصكم أو ستنقذكم من هذا العذاب الأليم؟؟، فخلّصوا أنفسكم، ولا منقذ لكم ولا نجاة لكم إلا بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله تبارك وتعالى، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مناص لنا من هذا من حصول ذلك، ولا مناص لكم من العذاب والنكال.

❋قال الشيخ السعدي: لمّا كان المكذبون للرسول ﷺ، الذين يردُون دعوته، وينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم إنكم إن تحققت لكم أمنيتكم وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا لأنكم كفرتم بآيات الله واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم، قد تحتم وقوعه بكم، فإذًا تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد، ولا مجدي لكم شيئًا.

ﮩ ومعنى {فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}: أي العذاب في الدنيا بالخزي والدحور، أو العذاب في الآخرة، وهو أشد وأبقى، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم.

إذًا الله يرفع العذاب بوجود أهل الإيمان، ولولا عباد رُكّع وأطفال رُضّع وبهائم رُتّع لصُب العذاب على الناس صبًا.

قال تعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}: أي قل لهم آمنا بالله الواحد الأحد، وعليه توكلنا لا على غيره، توكلنا عليه في جميع أمورنا، توكلنا عليه دون غيره، وهذا فيه تعريض بمخالفة حال المشركين، لأنهم توكلوا على الأصنام، وأشركوا في التوكل على الله، ونسوا التوكل على الله باشتغال أفكارهم بالتوجه إلى أصنامهم.

التوكل على الله واجب.

هذه الآية فيها وجوب التوكل على الله عزَّ وجلَّ، ومن لم يتوكل على الله عزَّ وجلَّ فهو آثم، والله تبارك وتعالى يقول: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: 122]، أي على الله وحده الاعتماد، والثقة في الله وحده، والله جلَّ وعلا يقول: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

فإذًا أمر التوكل أمر في غاية الأهمية.

حقيقة التوكل.

حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع أو دفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، والتحقيق يحدث بأنه لا يُعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع إلا الله تبارك وتعالى، فإذًا على الله الاعتماد وحده، فحين يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فيُجرد معنى الاستعانة والتوكل، فحين إذٍ يُحقق الواجب عليه.

ماذا إذا حقق العبد التوكل؟؟؟

1. **إذا صنع العبد ذلك فإن الله عزَّ وجلَّ يحبه لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }.**
2. **وإذا صنع هذا كان على صفة الأنبياء والمرسلين كما قال الله تبارك وتعالى في شأن نبيّه نوح عليه السلام: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} [يونس: 71]، وكما قال تعالى على لسان نبيّه هود عليه السلام: "{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: 56].**

الذين يتوكلون على الله هم أهل الإيمان الحقيقي.

❋ حقيقةً،،، الذين يتوكلون على الله عزَّ وجلَّ هم أهل الإيمان الحقيقي فالله جلَّ وعلا يقول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2]، فعلى الله وحده يعتمد أهل الإيمان.

❋ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فقد جعل الله تبارك وتعالى التوكل شرطًا في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، قال سبحانه وتعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: 84]، فجعل دليل صحة الإسلام هو التوكل، كلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا كان ذلك دليلاً على ضعف الإيمان ولابد.

❋ أمّا أهل التوكل فتجدونهم من الشجاعة بمكان لا يهابون شيئًا وتراهم لا يخافون في الله لومة لائم، يقول الواحد منهم: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ} [هود: 55-56]، اصنعوا ما تشاءون...، وإذا قيل لهم: هؤلاء الذين يتربصون بكم الدوائر...، هؤلاء الذين يجمعون للناس {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ}...، هؤلاء قد صنعوا لكم سحرًا...، هؤلاء يُريدون أن يوقعوكم في الفخ...، هؤلاء يكيدون لكم كيدًا...، هؤلاء يتربصون بكم الدوائر... فيقولون: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173]، يكفينا الله، فيتوكلون على الله عزَّ وجلَّ؛ ويعرفون أن الله وحده هو الذي يدفع عن أهل الإيمان، فالله تبارك وتعالى يُدافع عن الذين آمنوا، ويعلمون أنهم لو تركوها على الله عزَّ وجلَّ ما يخذلهم الله وأنهم لو صدقوا في توكلهم على الله تبارك وتعالى فإنهم لا يُخزون أبدًا، فالله تبارك وتعالى يتكفل بأمرهم {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: 36].

3. وإذا حقق الإنسان التوكل فإن له العز في الدنيا وله كذلك الجزاء الأوفى في الآخرة فأهل التوكل هم أهل الجنة يدخلونها بغير حساب ولا عذاب كما قال النبي ﷺ في شأن السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: "هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" [صحيح مسلم: 218]، وقال ﷺ: "يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير" [صحيح مسلم: 2840]، قالوا في توكلها لأنها تغدوا خماصًا وتغدوا بطانًا كما قال النبي ﷺ "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير..." [صحيح- السلسلة الصحيحة: 310]، والحديث رواه الترمذي وهو حديث صحيح.

4. وإذا حقق الإنسان التوكل فليس عليه من الشيطان سبيل، فليس عليهم أهل التوكل...، المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل قال الله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: 99]، لا نصيب للشيطان، يتحرز الإنسان من الشيطان بالتوكل على الله تبارك

وتعالى وكيف لا والله تبارك وتعالى يقول: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: 3]، وهو جلّ جلاله يقول: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: 58].

من ثمرات التوكل إجمالاً:

- التوكل عِز.
- التوكل يُوجب محبة الله تبارك وتعالى.
- التوكل صفة الأنبياء والمرسلين.
- التوكل صفة أهل الإيمان الراسخين.
- التوكل يجعلك في عز الدنيا وكذلك الجزاء الأوفى في الآخرة حين تدخل الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.
- التوكل يجلب لك الرزق.
- التوكل يدفع عنك الشيطان.
- التوكل يجعل ربك يكفيك وهو حسبُك {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه} [الطلاق: 3].
- والله تبارك وتعالى جعل العز في شأن التوكل حين قال " {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 49]" أي عزيز، لا يُذِل من استجار به ولا يُضيّع من لاذ بجنابه والتجأ إلى حماه، وهو حكيم سبحانه وتعالى في سائر تدبيره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية وما رجا أحدٌ مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، كما قال سبحانه " {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: 31].
- ومن سره أن يكون أقوى الناس فلْيتوكل على الله.

قال بعض سلفنا: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئًا يهوي إليه إلا ثدي أمه.

☜ **المتوكل كذلك لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه وتعالى.**

فإذا آوى الإنسان إلى ربه سبحانه وتعالى وارتمى بين يديه، وترك أمره له سبحانه وتعالى، وفوض واستسلم فإن الله لا يخذُله ولكن ينبغي أن نكون كذلك...، اتركوها لله وعلى الله حينها لا تجد، همًا، ولا كربًا، ولا تحسب حسابًا، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الملك: 29]، فاضمِروا لنا شرًا وفكروا في هلاك من تُريدون أن يهلك واصنعوا ما تصنعون... فإنا أمنا بالله وتوكلنا على الله، وحينئذٍ {فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم، وفيه تهديد... لكل أعداء الأنبياء والرسل، و لكل أعداء شريعة الرحمن...، فستعلمون من هو في ضلال مبين.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا} " أي ذاهبًا في الأرض إلى أسفل، فلا تنالوه بالفئوس ولا بالسواعد، أرأيتم إن أصبح هذا الماء غائرًا ذاهبًا في الأرض، لا تستطيعون أن تأخذوه بدِلائكم "أي الجرادل".

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}: أي فمن يأتيكم بهذا الماء النابع السائح الجاري على وجه الأرض لتشربوا منه ولتسقوا أنعامكم وأشجاركم وزروعكم فلا يقدر على ذلك إلا الله وهذا مُلك الله، ولذلك خُتِمت هذه الآية بما فيه دليل القدرة كما افتُتحت السورة بذلك وهذا وجه الارتباط بين أول السورة وآخرها، {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فابتدأت بالقدرة وانتهت بآية من آيات القدرة.

أرأيتم إن أصبح هذا الماء غائرًا في الأرض، فكلما أردتم أن تصلوا إليه لا تستطيعون، وحينئذٍ تيأسون من أن تشربوا أو تُسقوا الأنعام والأشجار والزروع، فمن ذا الذي يأتيكم بهذا الماء الجاري فلابد لهم من أن يقولوا لا يأتينا به إلا الله، فالمعنى قل لهم لِمَ تُشركون به ولا يقدر على الأمر سواه، لا يقدر أحد على هذه الأمور إلا الله تبارك وتعالى.

هذه السورة سورة عظيمة، جليلة، هى الكافية، وهى الواقية من عذاب القبر كما بيّنا.

دروس وعبر في هذا المقطع من السورة:

وفي هذا المقطع جاءت عدة فوائد ودروس وعبر، جاءت ببيان أن وجوه الكفار يوم القيامة ذليلة خاشعة لهول ما ترى، وجاءت بأن مهمة الأنبياء والرسل وأتباعهم ليس إلا البلاغ، وبيّنت ما كان عليه أهل الشرك من عداوة للنبي ﷺ حتى تمنوا موته، وجاءت بوجوب التوكل على الله تبارك وتعالى، ونصّت على آية من آياته سبحانه بأنه يُخرج الماء من تحت الأرض ليشرب الناس لتكون في هذا أعظم الآيات على قدرته سبحانه وتعالى.

الدروس الإيمانية والتربوية في الآيات:

هذه الآيات البيّنات اشتملت على دروس إيمانية وتربوية عظيمة، فقد بيّنا من خلالها كيف ينبغي للإنسان أن يتخلص من آفات الكبر ومن آفات الغِل والحِقد كما جاء في قوله تبارك وتعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} تكبّرًا واستهزاءًا واستخفافًا، وكما قال تبارك وتعالى في قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا}، دلالة على ما كانت تُضمِر هذه النفوس من هذه الأحقاد.

الإيمان لا يتحقق إلا بالتخيلة.

كان في هذا إشارة بيّنة على أن الإيمان لا يتحقق إلا بالتخلية، بأن يتخلى الإنسان عن هذه الآفات، ولا يتخلص الإنسان من ذلك حتى يعلمَ الرسالة التي يلتزم بها، وهذه الرسالة تبدأ بأن يتعلَم ويعلم ما ينبغي له أن يعلمه، ويرُد الأمر بعد ذلك في ما لا يعلم إلى الله تبارك وتعالى {إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} ولا تكون نذارة إلّا بعلم، وإلّا بما علمنا الله عزَّ وجلَّ، فينبغي أن يكون حال الداعي إلى الله تبارك وتعالى دائمًا في ازدياد في التعلم، وما لا يعلم يرُد أمرهُ إلى الله تبارك وتعالى.

اذهبوا إلى الله...

والآيات هتفت بنا اذهبوا إلى الله {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 99] ، اذهبوا إلى الله وتقربوا إليه الآن، من قبل أن يقترب العذاب وحينها تسوء الوجوه وتسّوَد وجوه، "فنسأل الله أن يُبيض وجوهنا يوم أن نلقاه".

علمتنا الآيات...

والآيات علمتنا درس التوكل والاستعانة بالله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]، {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف: 89]، وعلمتنا كيف نقدُرُ الله حق قدره حين نتأمل الآيات البيّنات في الكَوْن، ولا نترك آية من هذه الآيات بغير تفكر وتأمل، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ}: تفكروا، افهموا، عليكم أن تعوا الدرس لا تمروا على هذه الآيات وأنتم غافلون ولا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}: لا يأتينا به إلا ربُّ العالمين.

فنسأل الله عزَّ وجلَّ أن يفتح علينا فتوح العارفين، وأن يجعلنا من أهل القرآن الكريم، ومن المتدبرين العاملين.

نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل القرآن هو شفيعنا يوم أن نلقاه، ويجعل القرآن حُجة لنا لا علينا.

اللهمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الحق أحينا ما دامت الحياة خيرًا، وأمِتنا مادام الموت خيرًا.

اللهمَّ إنّا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

اللهمَّ إن أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين، وإلّا أطل أعمارنا في طاعتك، وفي رضوانك، إنك بالإجابة جدير، نعم المولى ونعم النصير.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

وصلِّ اللهم وسلِم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

